تودّعك الحجارة المنحوتة... يودّعك صخر لبنان

حين يرحل العمود الثالث ليعانق التراب، وتبقى الحجارة تبوح بما هو أصدق مما وصفت به أشكالها المطوّعة المنحوتة لرسم فضاء مختلف، تحار إذا كان عليك أن تحزن، تحار إذا كان من المفترض عليك أن تقيم مراسم الوداع على مذابح نحتت، فأورقت معاني تفجّر الحجر في برودته وصمته، براكين عطاء وجمال.

إنها صورة نرسمها بالكلمات، لقرية نموذجية صغيرة في البترون، اسمها من التاريخ الذي لم يُكتب بعد، إنها "راشانا" السريانية التي تعني "أنا الرأس"؛ وعمودها الثالث الذي رحل، النحات ألفرد بصبوص، بعد أن سبقه ميشال ويوسف، ثالوث أخوي لمع عالمياً في فضاءات النحت، ضاقت بهم المحترفات لغزارة أعمالهم، فحوّلوا قرية راشانا إلى محترف عالمي، شرطه الأول والأخير الإبداع الذي يناغي الطبيعة... طبيعة لبنان المفتوحة الآفاق بلا حدود.

غاب ألفرد نهار الأحد في الأول من كانون الثاني 2006، بعد أن أطفأ شمعة الثمانين، كأنه أراد أن يستقبل القدر الجديد ثم يغفله، فمن هم مثل ذلك الثالوث، يكتبون القدر بأيديهم، بالإزميل والمطرقة، بناء في البدايات، ونحتاً يخرج من الصميم مخترقاً الفراغ، يجرّحه حتى ينزف دماء ويترك تجاعيد كالمطر ومياه السواقي حين يحفر تاريخه في الأرض.

حين يرحل ألفرد...، وها قد رحل، تبكي حجارة نصبها مع أخوته في راشانا، لكأنها استخرجت من باطن الأرض وحكت بأيديهم فنصبت لتحيّي من حُمِلَ على الأكف مودّعاً قدره الجديد لقدر أجدّ.

ها هو ألفرد، الذي كان يتذمّر من الباطون المسلّح الذي نتكدّس وراءه دون روح، يودعنا راشانا، يودعنا "الرأس"... يودعنا الحكمة التي جعلت الحجارة تفرح وتحزن، تقيم المراسم عنّا وتودعه ثم تودع قوافل... وتبقى أبداً الشاهدة الحيّة الوحيدة على كل الأزمنة والمسارات.

ها هو ألفرد، الباحث دوماً عن حجارة من أرضه، وقد نعاها في زمن الكسّارات، واحتفى بها عروساً حين لامستها يداه.

ها هو يطلّ، ألفرد مع ميشال ويوسف، كلّ من زاويته الإبداعية، لكنهم معاً... يطلّون في كلّ جنبات راشانا، يطلون والجبل والتراب الأحمر، على حجارة مصفرّة رصف بها الأقدمون حدود الجلالي وجدران المنازل وجسور الطرقات فوق الأنهر المتدفقة للانتماء للبحر، ها هم يطلّون على البحر، وقد رسموا فضاءهم...

فمن يبكي عليهم بذلك الصدق... إلا الحجر؟

أمية درغام